بنته الصغيرة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

تتمة

. . . وجاء من الغد أبو يحيى مالكُ بنُ دينار الى المسجد ، فصلى بالناس ، ثم تحوَّل الى مجلس درسه وتكنَّفوا حوله ؛ وكانوا الى بقيّة خَبَره في لهفةٍ كأن لها عُمراً طويلاً في قلوبهم ، لا ظمأ ليلةٍ واحدة

وقال منهم قائل : أيها الشيخ ، جُعِلتُ فِداك ، ما كان تأويلُ الحَسَنِ لتلك الآية من كلام الله تعالى ، وكيف رجَعَ الكلام في نفسك مَرْجِعَ الفكر تتبّعُه ، وأصبح الفكر عندك عملاً تحذو عليه ، واتصل هذا العملُ فكان ما أنت في ورَعك و . . . ؟

فقطع الامام عليه وقال : هَوِّنْ عليك يا هذا ؛ إن شيخك لأهوَنُ من أن تذهب في وصفه عيناً أو شِمالاً ، وقد روى لنا الحَسَن يوماً ذلك الخبرَ الواردَ فيمن يُعذَّب في النار ألف عام من أعوام القيامة ، ثم يدركه عفوُ الله فيخرج منها ، فبكى الحسن وقال : « يا ليتني كنت ذلك الرجل ! » وهو الحسنُ يا بنيَّ ، هو الحسن

فضجَّ الناس وصاح منهم صائحون : يا أبا يحيى ، قتلتنا يأساً . وقال الأول . إذا كان هذا نأوشكْ أن يمسّنا اليأسُ والقنوط ، فلا ينفعنا عملٌ ولا نأتي عملاً ينفع

قال الشيخ : هوِّنوا عليكم ، فان للمؤمن ظنَّين : ظنّاً بنفسه ، وظناً بربه ؛ فأما ظنُّه بالنفس فينبغي أن ينزلَ بها دون تَجَحْنَاتها ولا يفتأ ينزل ؛ فاذا رأى لنفسه أنها لم تعمل شيئاً وجب عليها أن تعمل ، فلا يزال دائماً يدفعها ، وكلما أكثرتْ من الخير قال لها : أكثِري . وكلما أقلّتْ من الشر قال لها : أقلي . ولا يزال هذا دأبُهُ ودأبُها ما بقي ؛ وأما الظنُّ بالله فينبغي أن يعلوَ به فوق الفَتَرات والميلِ والآثام ولا يزال يعلو ؛ فان الله عند ظنِّ عبده به ، إنْ خيراً فله وإنْ شرّاً فله . ولقد روينا هذا الخبر : « كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قَتَل تسعاً وتسعين نفساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فدُلَّ على راهب فأتاه ، فقال : إنه قتل تسعاً وتسعين نفساً ، فهل له من توبة ؟ قال : لا ! فقتَله فكمَّل به مائة ! ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدُلَّ على رجل عالم ، فقال له : إنه قتل مائة نفس ، فهل له من توبة ؟ قال : نعم ؛ ومَن يحول بينك وبين التوبة ؟ إنطلِقْ الى أرض كذا وكذا فان بها أُناساً يعبدون الله عز وجل ، فاعبد اللهَ معهم ولا ترجعْ الى أرضك ، فانها أرضُ سَوْء .

فانطَلَقَ ، حتى إذا نصَّفَ الطريق أتاه ملكُ الموت ، فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمةِ وملائكةُ العذاب ؛ فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مُقبِلاً بقلبه الى الله . وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قطّ . فأتاهم مَلَكٌ في صورة آدميّ فجعلوه حَكَماً بينهم ، فقال : قِيسوا ما بين الأرْضَين ، فالى أيهما كان أدنى فهوَ له . فقاسوا فوجدوه أدنى الى الأرض التي أراد ، فقبضتْه ملائكةُ الرحمة !

قال الشيخ : فهذا رجُل لما مشى بقلبه الى الله حُسِبت له الخطوةُ الواحدة ، بل الشبر الواحد ؛ ولو أنه طوَّف الدنيا بقدميه ولم يكن له ذلك القلب ، لكان كالعظام المحمولة في نعش ؛ قبرُها في الشرق هو قبرها في المغرب ، وليس لها من الأرض ولا للأرض منها إلا معنى واحدٌ لا يتغير ؛ هو أنه بجملته ميّت ، وأنها بجملتها حُفْرة

والانسان عند الناس بهيئة وجهه وحِلْيته التي تبدو عليه ، ولكنه عند الله بهيئة قلبه وظنّه الذي يظنُّ به ؛ وما هذا الجسم من القلب إلا كقشرة البيضة(1) مما تحتها . فيالها سخريةً أن تزعم القشرة لنفسها أن بها هي الاعتبار عند الناس لا بما فيها ، إذ كان ما تحويه لا يكون إلا فيها هي ؛ ومن ثمَّ تُبعِدُ في حماقتها فتسأل : لماذا يرميني الناس ولا يأكلونني . . . ؟

إن هذه الأخلاقَ الفاضلةَ في هذا الانسان لا تجد تمامَ معناها إلا في حالة بعينها من أحوال القلب ، وهي حالة خشوعه على وصفها الذي شرحته الآية الكريمة : « أَلَمْ يَأْنِ للذين آمَنُوا أن تَخْشَعَ قُلوبُهم لِذِكْرِ اللهِ وما نَزَلَ مِنَ الحقِّ . »

(1) قشرة البيضة العليا اليابسة تسمى القيض بفتح القاف وسكون الياء ، والقشرة الداخلة الملتزقة بالبياض تسمى الغرقئ بكسر الغين والقاف

فالأخلاقُ الفاضلةُ محدودةٌ بالله والحقّ معاً ، وهي كلُّها في خشوع القلب لهذين ؛ فإن من القلب مخارجَ الحياة النفسية كلها

قال الشيخ : وأنا منذ حفظتُ عن الحسن تأويلَ هذه الآية ، واستَنَنْتُ بها ، مضيتُ أعيشُ من الدنيا في تاريخ قلبي لا في تاريخ الدنيا ، وأدركتُ من يومئذٍ أنْ ليس حفظُ القرآن حِفْظَه في العقل ، بل حفظُه في العمل به ؛ فإن أنت أثبت الآية منه وكنت تعمل بغير معناها ، وتعيش في غير فضيلتها فهذا — ويحك — نسيانُها لا حفظُها . وقد كان قومُنا الأوّلون بمعانيه كالشجرة الخضراء النامية ؛ فيها وَرَقُها الأخضر وزهرُها وثمرُها ، وعلى ظاهرها حياةُ باطنها ، فلما ثبتَ الناسُ على الشكل وحده ، ولم يبالوا القلبَ وأحوالَه أصبحوا كالشجرة اليابسة ؛ عليها ورقُها الجافُّ ليس في بقائه ولا سقوطه طائل

ما أصبحتُ ولا أمسيت منذ حفظتُ تفسير الآية إلا في حياةٍ منها ، وهذه الآية هي دلّتني بمعانيها أن ليست الحياةُ الأرضيّةُ شيئاً إلا ثورةَ الحيّ على ظُلْم نفسه ، يَستكيفُ عنها أكثرَ مما يَسْتَجرُّ لها ؛ والناسُ من شقائهم على العكس يستجرُّون أكثرَ مما يستكيفُون ، وإنما السعيدُ مَن وجد كلماتٍ روحانيةً إلٰهيةً يعيشُ قلبُه فيهن ، فذاك لا يعمل أعمالَه كما يأتي ويتفق ، بل يحذو على أصل ثابت في نفسه ، ويختار فيما يعمل أحسنَ ما يعمل ؛ ومن ثمّ لا يكون جهادُه مُراغمةً أو خضوعاً في سبيل الوجود كالحيوان ، بل في سبيل صحّةِ وجوده ؛ ولا يكون غرضه أن يلابسَ الحياةَ كما تأخذه هي وتَدَعُه ، بل أن يحيا في شرف الحياة على ما يأخذها هو ويَدَعُها

إن الشقاء في هذه الدنيا إنما يَجُرُّه على الانسان أن يعمل في دفع الأحزان عن نفسه بمقارفته الشهواتِ وباحساسه غرورَ القلب ؛ وبهذا يُبعد الأحزان ليجلبها على نفسه في صورٍ أخرى !

* * *

قال الشيخ : وكان مما حفظته من تفسير الحَسَن قوله :

إن كل كلمة في الآية تكاد تكون آية ، وليست الكلمةُ في القرآن كما تكون في غيره ، بل السُّمُوُّ فيها على الكلام ، أنها تحمل معنًى وتُومئ إلى معنًى وتستتبعُ معنى ؛ وهذا ما ليس في الطاقة البشرية ، وهو الدليل على أنه « كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آياتُه ثمّ فُصِّلَتْ »[1]

يقول الله تعالى : « ألم يَأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبُهم لذكر الله وما نزل من الحق »

« ألم يأنِ » هذه الكلمة حثٌّ ، وإطماعٌ ، وجدالٌ ، وحجة ؛ وهي في الآية تُصرّح أن خشوع القلب الذي تلك صفتُه هو كمال للايمان ، وأن وقت هذا الخشوع هو كمالُ العمر وكيف يعرف المؤمنُ أنه (سيأتي) له أن يعيش ساعة أو ما دونها ؟ إذَنْ فالكلمةُ صارخةٌ تقول : الآنَ الآنَ قبل ألّا يكون آن . أيْ : البدارَ البدارَ ما دمتَ في نَفَسٍ من العمر ؛ فإن لحظة بعد (الآن) لا يضمنها الحيّ . وإذا فني وقتُ الانسان انتهى زمنُ عمله فبقي الأبد كله على ما هو ؛ ومعنى هذا أن الأبد للمؤمن الذي يدرك الحقيقة ، إنْ هو إلا اللحظةُ الراهنة من عمره التي هي (الآن) . فانظر — ويحك — وقد جُعِلَ الأبد في يدك ؛ انظر كيف تصنع به ؟

تلك هي حكمة اختيار اللفظة من معنى (الآن) دون غيره على كثرة المعاني

ثم قال : « للذين آمنوا » وهذا كالنّصّ على أن غير هؤلاء لا تخشع قلوبُهم لذكر الله ولا للحق ، فلا تقومُ بهم الفضيلة ، ولا تستقيم بهم الشريعة ، وعالِمُهم وجاهلُهم سواء ؛ لا يخشعان إلا للمادة ؛ وكأن إنسانهم إنسانٌ ترابيّ ، لا يزال يضطربُ على مَكَرّ الليل والنهار بين طرفين من الحيوان : عيشِه وموتِه ؛ وما تقسو الحياةُ قسوتَها على الناس إلا بهم ، وما ترقّ رقّتَها إلا بالمؤمنين

وجَعَل الخشوعَ للقلوب خاصةً ، إذ كان خشوعُ القلب غير خشوع الجسم ؛ فهذا الأخير لا يكون خشوعا ، بل ذلاً ، أو ضَعَةً ، أو رياءً ، أو نفاقاً ، أو ما كان . أما خشوع القلب فلن يكون إلا خالصاً مُخلَصاً تَمحَضَ الإرادة

واشترطَ « القلبَ » كأنه يقول : إنما القلبُ أساسُ المؤمن ، وإن المؤمن ينبع من قلبه لا من غيره ، متى كان هذا القلب خاشعاً لله وللحق . فإن لم يكن قلبه على تلك الحال ، نَبَعَ منه الفاسقُ

(١) طريقتنا في اكتناه إعجاز القرآن أن الكلمة الواحدة من كلماته لها جهات عدة ؛ كما ترى فيما نشرحه من تفسير هذه الآية ؛ وفيما جئنا به من تفسير آيات سبقت في المقالات الأخرى ؛ فالبحث في فهم القرآن يجب أن يكون في اللفظة ووجه اختيارها وسياق تركيبها وما تدل عليه في كل ذلك ، وما يدل كل ذلك بها . وقد بسطنا هذا في كتابنا إعجاز القرآن

والظالم والطاغية وكلُّ ذى شر . ما أشبهَ القلبَ تتفرعُ منه معانى الخُلُق ، بالحبّة تتسرّحُ منها الشجرة ؛ فخُذْ نفسَك من قلبك كما شئت ؛ حُلواً من حلو ، ومُرّاً من مُرّ

وخشوعُ القلب لله وللحق ، معناه السموُّ فوق حب الذات وفوق الأثرة والمطامع الفاسدة ؛ وهذا يضع للمؤمن قاعدةَ الحياة الصحيحة ، ويجعلُها فى قانونَين لا قانونٍ واحد ؛ ومتى خشع القلب لله وللحق عَظُمتْ فيه الصغائر من قوّةِ إحساسه بها ، فيراها كبيرةً كبيرةً وإن عَمِيَ الناسُ عنها ، ويراها وهى بعيدةٌ منه بمثل عين العُقاب ، يكون فى لُوحِ الجوّ ولا يغيب عن عينه ما فى الثّرَى

وقد تخشع القلوبُ لبعض الأهواء خشوعاً هو شرٌّ من الطغيان والقسوة ؛ فتقييدُ خشوعِ القلب « بذكر الله » هو فى نفسه نَفْيٌ لعبادةِ الهوى وعبادةِ الذاتِ الأنسانية فى شهواتها . وما الشهوةُ عند المخلوق الضعيف إلا إلَـهُ ساعتها . فيا ما أحكمَ وأعجبَ قولَ النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرقُ السارقُ حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يَشربُ الخمرَ حين يشربها وهو مؤمن » . جَعَلَ نزعَ الإيمان موقوتاً « بالحين » الذى تُقتَرَفُ فيه المعصية ؛ إذ لم يكن الله عند هذا الشقيّ هو إلَـهَ ذلك « الحين »

والخشوعُ لِمَا « نَزَلَ من الحقّ » هو فى معناه نَفْيٌ آخرُ للكبرياء الأنسانية التى تُفسِد على المرء كل حقيقة ، وتَخرج به من كل قانون ؛ إذ تجعل الحقائق العامة محدودةً بالإنسان وشهواته ، لا بحدودها هى من الحقوق والفضائل

ويَخرج من هذا وذلك تقريرُ الأرادة الأنسانية ، وإلزامُها الخيرَ والحقَّ دون غيرها ، وقهرُها للذّات وشهواتها ، وجعلُها الكبرياء الأنسانية كبرياءَ على الدنايا والخسائس ، لا على الحقوق والفضائل . وإذا تقرر كل ذلك انتهى بطبيعته إلى إقرار السكينة فى النفس ، ومحوِ الفوضى منها ، وجَعْلِ نظامها فى إحساس القلب وحده ؛ فيحيا القلبُ فى المؤمن حياةَ المعنَى السامى ، ويكون نبضُه علامةَ الحياة فى ذاتها ، وخشوعُه لله وللحق علامةَ الحياة فى كمالها

وقال : « ما نَزَلَ من الحقّ » كأنه يقول : إن هذا الحق لا يكون بطبيعته ولا بطبيعة الأنسان أرضيّاً ، فاذا هو ارتفع من الأرض ، وقرّره الناسُ بعضُهم على بعض ، لم يجاوز فى ارتفاعه رأسَ الأنسان ، وأفسدتْه العقول ؛ إذ كان الأنسان ظالماً متمرّداً بالطبيعة ، لا تحكمه من أول تاريخه إلا البيئاءُ ومعانيها وما كان شبيهاً بذلك مما يجيئُه من أعلى ؛ أىْ بالسلطان والقوة ؛ فيكون حقاً « نازلاً » مُتدَفّعاً كما يَتصوّب الثُّقْلُ من عالٍ ، ليس بينه وبين أن ينفذ شيء

والخشوعُ لما نزل من الحق ينفى خشوعاً آخر هو الذى أفسد ذاتَ البينِ من الناس ، وهو الخشوع لما قام من المنفعة وانصرافُ القلب اليها بإيمان الطمع لا الحق

وبجملة الآية على ذلك الوجه يتحقق العدلُ والنَّصفَةُ بين الناس ؛ فيكون العدل فى كل مؤمنٍ شعوراً قلبياً ، جارياً فى الطبيعة لا مُتكلّفاً من العقل ؛ وبهذا وحده يكون للانسان إرادةٌ ثابتة على الحق فى كل طريق ، لا إرادةٌ لكل طريق ، وتستمرّ هذه الأرادة مُتّسقةً فى نظامها مع إرادة الله ، لا نافرةً منها ولا متمرّدةً عليها ؛ وهذا وذاك وذلك يُثبّت القلبَ مهما اختلفت عليه أحوال الدنيا ، فلا يكون من إيمانه إلا سُموُّه وقوّتُه وثباتُه ، وينزل العمرُ عنده منزلةَ اللحظة الواحدة ، وما أيسرَ الصبرَ على لحظة ! ما أهونَ شرّ « الآن » إن كان الخيرُ فيما بعده

ألمْ يأنِ ؛ ألمْ يأنِ ؛ ألم يأنِ . . .

* * *

قال الشيخ : وكان الحسَنُ فى معانيه الفاضلةِ هو هذه الآيةَ بعينها ؛ فما كانت حياتُه إلا اسلاميةً كهذا الكلام الأبيض المُشرِقِ الذى سمعتُه منه ؛ شعاره أبداً : « الآنَ قبل ألاّ يكونَ آن . » وإمامُه : « خُذْ نفسك من قلبك . » وطريقتُه « شَرفُ الحياة لا الحياةُ نفسُها »

وكان يرى هذه الحياة كوَقعة الطائر ؛ هى عملُ جناحين مُستوفِزَينِ أبداً لعملٍ آخر هو الأقوى والأشدّ ، فلا ينزلان بطائرهما على شيءٍ إلا مطويّينِ على قدرةِ الارتفاع به ، ولا يكونان أبداً إلا هَفّافين خفيفين على الطيران ؛ إذ كانا فى حكم الجوّ لا فى حكم الأرض ، وآلةُ الوقوع والطيرانِ بالانسانِ شهواتُه ورَغَباتُه ؛ فان حطّته شهوةٌ لا ترفعه فقد أوْبقَته وأهلكتْه وقذفت به ليُؤخَذ .

لقد روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يَبلُغُ العبدُ أن يكونَ من المتقين حتى يَدَعَ مالا بأسَ به حذراً مما به بأس » وهذا ضربٌ من خشوع القلب المؤمن فيما يحلّ له ؛ يَدَعُ أشياءَ كثيرةً لا بأس عليه فيها لو أتاها ، ليَقوى على أن يدع ما فيه بأس ، فان الذى يترك ماله يكون أقوى على ترك ماليس له .

والنفسُ لابدَّ راجعةٌ يوماً إلى الآخرة ، وتاركةٌ أداتَها ؛ فقِوامُ نظامها فى الحياة الصحيحة أن تكون كل يوم كأنها ذهبتْ إلى الآخرة وجاءت . وتلك هى الحكمة فيما فرضته الشريعةُ الاسلامية من عبادةٍ راتبةٍ تكون جزءاً من عمل الحياة فى يومها وليلها . فاذا لم تكن النفس فى حياتها كأنها دائما تذهب إلى مصيرها وترجع منه ، طمسَها الجسمُ وحبسها فى فى إحدى الجهتين ، فلم يبقَ لها فيه إلا أثر ضئيل لا يتجاوزُ النصح ، كاعتراض المقتول على قاتله ، يحاول أن يَرُدَّ السيفَ بكلمة . . ! وبذلك يتضاعف الجسم فى قوّته ويشتدّ فى صولته ، ويتصرّف فى شهواته كأن له بطنين بجوعان معاً . . فتستهلكُ شهواتُ المرء دينَه ، وتقذف به يميناً وشمالاً ، على قصدٍ وعلى غير قصد ، وتمضى به كما شاءت فى مَدْرَجةٍ مَدْرجةٍ من الشرّ ؛ ومثلُ هذا المسرفِ على نفسه لا يكون تمييزُه فى الدين ولا إحساسُه بالخير إلا كذلك السِّكّير الذى زعموا أنه أراد التوبة ، وكانت له جرّتان من الخمر ، فلما اتعظَ وبلغ فى النظر إلى نفسه وحظّ إيمانه وأراد أن يطيع الله ويتوب — نظر إلى الجرّتين ثم قال : أتوبُ عن الشرب من هذه حتى تفرغَ هذه . . . !

***

قال الشيخ : ثم إنى تُبتُ على يد الحسن ، وأخلصتُ فى التوبة وصحّحتُها ، وعلمتُ من فعله وقوله أن حقيقة الدّين هى كبرياء النفس على شرّها وظلمها وشهواتها ، وأن هذه الكبرياء القاتلة للإثم هى فى النفس أختُ الشجاعة القاتلة للعدوّ الباغى ، يفخر البطلُ الشجاعُ بمبلغه من هذه ، ويفخر الرجل المؤمن بمبلغه من تلك ، وأن خشوع القلب هو فى معناه حقيقةُ هذه الكبرياء بعينها .

وحدّثتُ الحسنَ يوماً حديثَ رؤياى(1) وما شُبِّه لى من عملى السيء وعملى الصالح ، فاستدمعتْ عيناه :

وقال : إن البنتَ الطاهرةَ هى جهادُ أبيها وأمها فى هذه الدنيا ، كالجهاد فى سبيل الله ؛ وإنها فوزٌ لهما فى معركةٍ من الحياة ، يكونان هما والصبر والايمان فى ناحية منها قبيلاً ، ويكون الشيطانُ والهمُّ والحزن فى الجهة المُناوِحةِ قبيلاً آخر

إن البنتَ هى أمٌّ ودار ، وأبَواها فيما يكابدان من إحسان تربيتها وتأديبها وحياطتها والصبر عليها واليقظة لها — كأنما يحملان الأحجار على ظهرَيهما حجراً حجراً ، ليَبْتَنِيا تلك الدار فى يوم يوم إلى عشرين سنة أو أكثر ، ما صحِبتْه وما بقيتْ فى بيته . فليس ينبغى أن ينظر الأبُ إلى بنته إلا على أنها بنتُه ، ثم أمُّ أولادها ، ثم أمُّ أحفادِه ؛ فهى بذلك أكبرُ من نفسها ، وحقها عليه أكبر من الحقّ ، فيه حُرمتُها وحرمة الانسانية معاً ؛ والأبُ فى ذلك يُقرِض اللهَ إحساناً وحناناً ورحمة ، لحقٌّ على الله أن يُوَفّيه من مثلها ، وأن يُضعفَ له

والبنت ترى نفسها فى بيت أهلها — ضعيفةً كالمنقطعة وكالعالّة ، وليس لها إلا اللهُ ورحمةُ أبويها ؛ فان رحماها ، وأكرماها فوق الرحمة ، وسرّاها فوق الكرامة ، وقاما بحق تأديبها وتعليمها وتفقيهها فى الدين ، وحفظا نفسها طاهرة كريمةً مسرورةً مؤدَّبةً — فقد وضعا بين يدَى الله عملاً كاملاً من أعمالها الصالحة ، كما وضعاه بين يدى الانسانية . فاذا صارا الى الله كان حقّاً لها أن يجدا فى الآخرة يميناً وشمالاً يذهبان بينهما إلى عفو الله وكرمه ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان له ابنةٌ فأدّبها فأحسنَ تأديبها ، وغذّاها فأحسن غذاءَها ، وأسبغَ عليها من النعمة التى أسبغ اللهُ عليه — كانت له مَيْمَنَةً ومَيْسرةً من النار إلى الجنة . »

فهذه ثلاثٌ لابدَّ منها معاً ، ولا تُجزِىءُ واحدةٌ عن واحدة فى ثواب البنت : تربيةُ عقلها تربيةَ إحسان ، وتربيةُ جسمها تربيةَ إحسان وإلطاف ، وتربيةُ روحها تربيةَ إكرام وإلطاف وإحسان

***

قال الشيخ : واللهُ أرحمُ أن تضيعَ عنده الرحمة ؛ والله أكرم أن يضيع الإحسان عنده ، والله أكبر . . .

وهنا صاح المؤذّن : الله أكبر

فتبسّم الشيخ وقام إلى الصلاة .

طنطا — مصطفى صادق الرافعى

(1) ذكرت الرؤيا فى القسم الأول من هذه المقالة